مشروع المنهج النقدي الإسلامي في الفكر العربي المعاصر
–متصوّراته القاعدية وتحدّياته العصرانية–

The Islamic Critical Approach Project in the Contemporary Arab Perception - Its Basic Perceptions and Modernity Challenges-

مصطفى بوجملين جامعة أم البواقي(الجزائر)، الإيميل:mostefa.boudjemline@univ-oeb.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/18 تاريخ القبول: 2022/05/17 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص: إنّ ما يميز النقد الأدبي في شكله الحداثي هو التعدّد على مستوى المشارب والمقاربات، بيد أنّ هذه التعدّدية تجد وفاقا فيما بينها؛ لأنها تقبع تحت مظلّة العمل الأدبي؛ حيث كانت سمة الانطباعية الخصيصة الأبرز في واجهة الدراسات القديمة، ولكن متغيرات الواقع الأدبي الجديد قد أفرز المتصوّر النقدي القائم على العلمية والمنهجية التحليلية الدقيقة، واللّتين أرسيتا معالم النقد الأدبي الحداثي؛ حيث يتقصى الناقد العمل الأدبي عبر التّسلح بحمولة معرفية، وذلك بهدف انتشال المكنونات الجمالية بداخله.

وفي ضوء هذا الاستلاب والخنوع العربي لمناهج الآخر تبرز القضية النقدية الإشكالية التي سعينا إلى طرقها في هذه الورقة البحثية، والمتمثلة في رهانات النقد الأدبي الإسلامي في مجابهة المناهج النقدية للآخر؛ حيث إنّه سليل المناهج السياقية والنصّانية، ولكن وفق الرؤية الإسلامية؛ إذ إنّ المقاربة النقدية لهذا النقد لا تلغي الشكل والمضمون في تناولها للعمل الأدبي، ولا حتّى المؤلف ومتلقي خطابه، فهو نقد متوازن منفتح، أو إنه المنهج الشمولي –بتعبير (عماد الدين خليل)–.

كلمات مفتاحية: منهج؛ نقد إسلامي؛ أدب إسلامي؛ حداثة؛ عماد الدين خليل

Abstract:

Modernist literary criticism is characterized by a plurality of attitudes and approaches. Impressionism was the most prominent characteristic of the old studies, but the new literary variables produced the critical perception based on scientific and accurate methodology. Where the critic investigates the literary work by arming himself with a load of knowledge, with the aim of bringing out the aesthetic elements within it.

In light of this Arab subservience to the approaches of the other, the problematic issue that we have sought to find emerges, which is the stakes of Islamic literary criticism in confronting the approaches of the other; As it is a descendant of contextual and textual approaches, but according to the Islamic vision; His critical approach does not cancel the form, not even the author and the recipient of his speech, as it is a balanced, open criticism, or it is the holistic approach - in the expression (Imad Al-Din Khalil) -.

Keywords: Method; Islamic criticism; Islamic literature; modernity; EmadEddin Khalil

المؤلف المرسل: مصطفى بوجملين، **الإيميل**: mostefa.boudjemline@univ-oeb.dz

1. مقدمة:

لقد أصبح من الواضح الحديث عن التحوّل النوعي الذي أحدثه المنهج النقدي الإسلامي الجديد–أو لنقل بوادره المنهجية– داخل الخطاب النقدي العربي المعاصر؛ وذلك لاتخاذه مسارا تأصيليا للميراث النقدي العربي، بعدّه النموذج الأصيل لبناء المنهج الجديد المقابل للنظريات النقدية الحداثية، التي عجّت بها الساحة العربية المتلقّية لمفاهيمها ومصطلحاتها، والتي تأخذ طابعا هلاميا نظرا لمرجعياتها الفلسفية والعلمية دون إغفال منه للجوانب الأصيلة داخل مناهج الآخر، الذي يستفاد منها في الممارسات الإجرائية للنتاج الأدبي.

وبناء على ذلك، فإنّنا مدار بحثنا يتأسّس وفق إشكاليات محورية مقتضاها الآتي:

ما النقد الإسلامي؟ وما بواكير تأسيسه المنهجي؟

وما مدى حوارية النقد الإسلامي مع مركزية النقد الغربي الحداثي؟

وما مدى استثمار مقولات المنهج النقدي الإسلامي في إرساء المدرسة النقدية العربية الجديدة؟

2.النقد الإسلامي المعاصر: الطموح إلى المنهج أم دعاية للاعتراف؟

إنّ الكشف عن متصوّرات المنهج النقدي الإسلامي ومنطلقاته التأسيسية لايتم إلا بالتعريج على مفهوم النقد الإسلامي في شكله العام؛ حيث يعرّف عند أبرز أقطابه – (عماد الدين خليل)– على أنّه «نقد معياري، ولكنّه يعطي مساحة (الذات) ..فهو إذا نقد شمولي، متوازن، شأنه في ذلك شأن سائر الفعاليات التي تتحرك في إطار الإسلام؛ لأنّها تستمد من رؤيته الشاملة المتوازنة، مقوّماتها وملامحها»(خليل، 2007، صفحة 186).

ويفصح هذا المحدّد التعريفي الذي خصّه الناقد لـ(النقد الإسلامي) على أهمية هذا النقد،والذي نعت بأوصاف عدّة، تمثّل أساسيات العمل النقدي: كالمعيارية، والشمولية، والتوازن، وفسحه المجال للدفق الذاتي

في المكاشفة النقدية، وهو بذلك يدحض الادّعاءات التي ترى فيه نقدا يبحث في الإطار المضموني المحدود.

وتدعيما لما أدلى به الناقد العراقي (عماد الدين الخليل) في مقولته الآنفة، فإنّنا نلتقي بالأسس الذي عمد إلى تكريسها الناقد (سيد قطب) –باعتبارها دعائم المنهج النقدي الإسلامي– في كتابه الموسوم بـ(في التاريخ فكرة ومنهاج)؛ والتي يكاد يتطابق بعضها مع رؤية (عماد الدين خليل)؛ حيث ينقلها لنا الباحث الأكاديمي (أحمد رحماني) وفق الآتي(رحماني، 1994/1995، الصفحات 422-423):

1- يعدّ الأدب تعبيرا موحيا عن قيم حيّة ينفعل بها ضمير الفنان وتنبثق من تصوّر معيّن للحياة والارتباطات فيها بين الإنسان والكون وبين الإنسان وأخيه الإنسان.

2- قيم الفن ترتبط ببعضها، ومن العبث أن نحاول تجريد الأدب من القيم التي يحاول التعبير عنها، وإذا فعلنا فلن نجد بين أيدينا سوى عبارات خاوية أو خطوط جوفاء.

3- القيم الأدبية بصورة مجملة الشعورية منها والتعبيرية ترتبط بالتصوّر، ولذا فمن العبث أيضا محاولة فصل القيم عن التصوّر الكلّي للحياة (...)، فكلّ تصوّر خاص للحياة وللارتباطات فيها بين الإنسان والكون من شأنه أن ينشئ قيما تتأثر بها الآداب والفنون.

3- القيم الأدبية بصورة مجملة الشعورية منها والتعبيرية ترتبط بالتصوّر، ولذا فمن العبث أيضا محاولة فصل القيم عن التصوّر الكلّي للحياة (...)، فكلّ تصوّر خاص للحياة وللارتباطات فيها بين الإنسان والكون من شأنه أن ينشئ قيما تتأثر بها الآداب والفنون.

4- لما كان للإسلام تصوّر معيّن للحياة تنبثق عنه قيم خاصة لها، فمن الطبيعي أن يكون التعبير عن هذه القيم أو عن وقعها في نفس الفنان ذا لون خاص، وأهمّ خاصية للإسلام أنّه عقيدة شاملة فاعلة خالقة.

5- من أبرز ملامح هذا المنهج الواقعية العملية، حتّى في مجال التّأملات والأشواق فهو لا يعبأ بالمثالي الذي لا وجود له في علم الغيب أو عالم الشهادة على حد سواء.

6- مهمة الأدب الرئيسية هي تغيير الواقع وتحسينه والإيحاء بالحركة والتجديد.

7- هذا المنهج يعارض بعض التصوّرات والقيم التي تعبر عنها الفنون المنحرفة ويقيم مكانها تصوّرات وقيم أخرى قادرة على الإيحاء بتصوّرات جمالية إبداعية، وعلى إبداع صور أكثر جمالا وطلاقة تنبثق انبثاقا ذاتيا من طبيعة التصوّر الإسلامي وتتكيّف بخصائصه المميّزة.

إنّ الميزات التي خصّها الناقد (سيد قطب) هي بالأهمية بما كان؛ إذ تجسّد ذاك التفاعل الإيجابي الذي يحرص على تبنّيه المنهج النقدي الإسلامي، والذي تكرّسه ثنائية (العلم/الجمال)، فالأولى منها تختّص بالقراءة التّأملية العميقة لسبر أغوار القضية الأدبية أو العمل الإبداعي بشكل عام -عبر تلك الكشوف النقدية التي تأخذ بالمنطلق العقلي الرياضي-، وعن الثانية فلأنّه يتلمس ذلك الدفق الشعوري الروحاني الذي تطرحه الدوال النّصية، التي تتجلى في ثوب لغوي قشيب، لأنّ من البيان لسحرا، وهذا ما يدلّل على المقاصد الواضحة التي يراهن عليها المنهج النقدي الإسلامي، الذي يعاب -عند بعضهم-؛ كونه نقدا مضمونيا وكفى.

ولقد دافع (عماد الدين خليل) على النقد الإسلامي باعتباره منهجا مقوّما للعمل الفنيعبر اتّخاذه لمبدأ الشمولية النقدية القائمة على المنطق والموضوعية والقياس، وهو في ذلك يضرب مثالا بتجارب الإسلاميين النقدية في مجال الفقه، حيث نلفيه مثبّتا هذه المسألة ومعلّقا عليها بقوله: «لم يكن الفقه لديهم مسألة ذوق شخصي، أو إعجاب ذاتي، أو اندماج وجداني في المشكلة التي يعرضون لها.. كان لابدّ لهم أن يقفوا بعيدين، يعاينون القضية من كل أطرافها، يدورون حولها مرارا وتكرارا (...) يظلّون بعيدين من أجل أن يظلّ منطق العقل والرياضة والقياس موضوعيا بحتا»(خليل، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، صفحة 202).

أمّا عن الاختلاف الذي يسطّره الناقد ليجلّي من خلاله طبيعة المجالين؛ الفقهي والأدبي، ليردّ من خلاله على تلك الادعاءات التي تقزّم (النقد الإسلامي)، وتحصره في مساجد العبادة –باعتباره يأخذ الشكل الوعظي الإرشادي–، فإنّنا نراه مدحضا تلك الأقاويل؛ وهذا ما نصّ عليه قوله: «أمّا الأدباء والنقاد فلم تكن زاوية نشاطهم ورؤياهم زاوية الفقهاء والمشرّعين (...) أولئك عادوا ليجدوا قاعدة يقيسون عليها قضاياهم، أمّا هؤلاء فقد عادوا لتذيبهم الآيات حبا وشوقا ...ليبهرهم جمال الأداء وتدهشهم موسيقاه الإلهية المعجزة، وتضحكهم وتبكيهم إيقاعات الكلمات وهي تنزل حينا كالصواعق»(خليل، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، صفحة 203).

ويكشف هذا النّص على موازنة يعقدها الناقد بين الرؤية النقدية في مجالي الفقه والأدب؛ إذ يبيّن فيه مدى الاختلاف بينها؛ حيث ينصرف الفقهيون إلى التنقيب عن القواعد والأسس القياسية المستقاة من النّص القرآني؛ بينما المهمة عند الأديب ترتكز على الجانب الجمالي فيه؛ فالأداء الذي أثبته الناقد في قوله يتمحور حول ذلك التناسق العجيب بين دواله، وتواؤم نظمها مع سياقات الحدث، وكذا تأكيده على أثيرية المستوى الموسيقى الذي يكون فاعلا مؤثرا في متلقيه المبدع، فيذوب مشاعريا مع الموسيقى ويترنم بعذوبة آياته المحكمة الرصينة.

ولقد سعى الناقد من خلال هذا النص المقارناتي أن يعرج بنا إلى مجال النقد الأدبي الإسلامي، انطلاقا من تعليقه على سمات النقد الوضعي والمعتقد الديني؛ إذ نجده قائلا في هذه المسألة:«الوضعيون قدّموا معطياتهم وتعاليمهم وفق إحدى صيغتين لا لقاء بينهما: إمّا أرقاما صارمة، ومسلمات عقلية جافة، وجدلا كلاميا ميّتا لا روح فيه (...) وأمّا الأديان فقد اختار الله الخلّاق أسلوبها الفذّ، الذي يجمع بين منطق الرياضة وروح الوجدان، بين صرامة العقل وشفافية الروح»(خليل، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي).

وهنا، فإنّنا نجد في قوله ما يشبه العمق في تقصّي أبجديات القراءة النقدية الحداثية، التي وصفها بالمقاربة الجافة الصارمة؛ والأكثر من ذلك اتخاذها للمبدأ الجدالي الذي يفتقد إلى المكوّن العاطفي الروحي على

خلاف الرؤية الإسلامية التي تجمع بين قاعدتي المنطق الوجدان، وهذا ما يمكّنها من المقاربة النقدية المتعقّلة الهادفة.

وبذلك، فإنّ الرؤية النقدية الإسلامية –في منظوره– «ترفض أشدّ الرفض تلك الخطيئة المنهجية التي مارسها الغربيون كثيرا واستمرؤوها طويلا: النظرة أحادية الجانب ..التشبّث بوجهة النظر المحدودة رغم أنّها تصدر عن زاوية ضيّقة، بينما هنالك، إذا أردنا الاقتراب من الحقيقة عشرات الزوايا الأخرى لالتقاط صورة أقرب إلى الواقع»(خليل، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، صفحة 204).

إنّ ملامح الزاوية الضيقة التي وصفها الناقد بالنظرة أحادية الجانب، والتي لم يفصح عنها تصريحا، تتجلى في مسألة تغليب السلطة الجمالية العازلة للعمل الأدبي عن سياقات الخارج، وباصطلاح البنيوية الاهتمام بالعنصر الداخلي على حساب الخارجي، وقد يشاطر هذه الرؤية نقاد آخرون، من مثل (بن عيسى بطاهر)، الذي يرى في المعايير الجمالية المنبثقة من منطلقات الفكر الغربي الحداثي وفقالمنظور النقدي الإسلامي «معايير قلقة لا تثبت على مبدأ، ولا يمكن الاتفاق عليها دون الرجوع إلى ثوابت فكرية، إذ للجمال مقاييس مختلفة تحدّدها الديانات الإلهية، والفلسفات البشرية(...) وعلى هذا الأساس من التذوّق الجمالي تنشأ الأفكار كما يقول المفكّر الإسلامي مالك بن نبي، وتتباين الثقافات التي تطبع كل حضارة من الحضارات بطابع مميّز»(بطاهر، 1998، صفحة 112).

وفي معرض نقد (وليد إبراهيم قصاب) لما اصطلح عليه بـ(دعوى الحيدة النقدية)، التي تكرّس لتوجّه تغريبي إقصائي يمسّ المعتقد والموروث الثقافي، والذين يعدّان في المتصّور النقدي الحداثي ركنان هامشيان يعيقان جوهر المقاربة النقدية لتلك الأعمال الأدبية؛ فإنّنا نجده مبرهنا ومحاججا هذه النظرة الضيّقة بمقولة (إليزابيث درو)، التي تقول في هذا الصدد: «إنّ الذوق الشخصي سيظلّ متباينا بحسب ما للإنسان من فردية وميول خاصة ...لأنّ لون ثقافتنا، ومبلغ وعينا، يدفعاننا إلى اتخاذ بعض المقاييس الفنّية وطرح بعضها الآخر»(قصّاب، 2008، صفحة 142).

إنّ هذا الاستدلال الذي عمد إليه الناقد في معرض دفاعه على (الموروث الثقافي)؛ –الذي يعدّ المنهل الثابت، والمرتكز الذي تشيّد من خلاله الأسس النقدية والمنهجية بعيدا عن تجاذبات المركز (الآخر الحداثي)– قد لا يجد وفاقا مع رؤية الناقد (لؤي صافي)، الذي شدّد على ضرورة الانفتاح على فضاءات النظرية الحداثية بعيدا عن الانغلاق داخل المظلّة الثقافية الماضوية؛ حيث لا يرى في هذه الرجعة الأثر الكبير والمميّز؛ لأنّ التأسيس للمنهج النقدي الإسلامي المعاصر عبر منطلقات القاعدة النقدية التراثية، وغضّ الطرف عن المنجزات النقدية المعاصر عند الآخر يمثّل نكوصا وسرابا، وهذا ما دلّ عليه قوله: «بيد أنّ مثل هذا النكوص إلى عصور الازدهار الإسلامي التاريخي والانطلاق منها (...) ليس إلّا سرابا خادعا وهروبا مشينا من العمل الجاد لتحمّل المسؤولية التاريخية للأمة اليوم. ذلك أنّ الانسحاب إلى الماضي والشروع بالبناء انطلاقا من مواقف الفكر والحضارة الإسلامية التاريخيين يفترض أنّ الحداثة واقع منفك عن الخبرة الاجتماعية والثقافية للمجتمعات الإسلامية»(صافي، 2003، صفحة 8).

ولعلّ الرسالة الكبرى التي سعى النقد الإسلامي إلى تكريسها وتثبيت عمدها على الأرضية النقدية المعاصرة تتمثّل في «تصحيح الخطأ الذي وقع فيه النقد الحديث حين تحوّل في كثير من المواقف إلى نوع مقيت من الدعاية والإعلام، وأصبح ميدانا للجدال المذموم، يبيح تشويه القيم، وانحراف السلوك. وقد غلبت عليه هذه الصفات السلبية حتى ضاع الكثير من القيم الجمالية والأخلاقية جراء الصداقات والتشرذم، وسيطرة القيم المادية في مجالات الأدب المختلفة»(بطاهر، 1998، صفحة 115).

ولذلك كان من واجب الأدباء والنقاد وفق متصّور (بن عيسى بطاهر) «تحديد هوية النقد الإسلامي بعدّه وسيلة فنّية وعلمية يلجأ إليها لأداء غايات سامية في المجتمع، ويردّون بذلك على أولئك الداعين إلى النقد غاية في حدّ ذاته»(بطاهر، 1998، صفحة 117).

ومن جهة أخرى، فإنّ الادّعاءات الرامية إلى خلق بؤرة توتر داخل ثنائيتي؛ القيمة والجمالية، وصرف الأولى إلى الاهتمامات النقدية الإسلامية بدعوى أنّ المكوّن الجمالي يظلّ مقصى من دائرة المقاربة النقدية الإسلامية، هي بمثابة الاتهام الذي يفتقد إلى الحجّية الدامغة والبرهان القاطع في نظر الباحثين الإسلاميين؛

حيث يردّ (بن عيسى بطاهر) على هذه الرؤية من منطلق أنّ «النقد لا يمكن تجريده من القيم والأخلاق العملية، بدعوى الموضوعية والحرّية، وبحجّة أنّ الناقد فنّان وظيفته الأساسية هي البحث عن الجمال المتجسّد في الأشكال الفنّية للأعمال الأدبية، أمّا نقد المضمون فليس من وظيفة النقد في شيء ما دام الجمال ماثلا في الشكل وطريقة التعبير، كما يزعم أصحاب هذا الموقف»(بطاهر، 1998، صفحة 121).

وتجد هذه الرؤية التي بسطها الناقد ما يدعّمها؛ حيث دافع عن هذا التصوّر النقدي (وليد إبراهيم قصّاب) في معرض تقويضه للمنهجية التي يكرسها التوجه النقدي الحداثي، والتي تجنح إلى التجريد الذي يمارس قطيعة مع المعتقد الأصولي؛ حيث يقول في هذا الشأن: «ولكن الواقع والممارسة العملية يؤكدان أنّ محاولة الناقد التجرّد الصارم، أو التام، عن قناعاته الفكرية والعقدية أمر غير مستطاع، وأنّ قناعة الناقد (الجمالية) لابدّ أن تهتزّ –إن لم نقل تنهار– أمام نصّ فاقع الدلالة في تقديم فكرة عن الحياة والكون مخالفة كل المخالفة لما يعتقده أو يحسّ به»(قصّاب، من قضايا الأدب الإسلامي، 2008، صفحة 145).

ولا مشاحة أنّ الأزمة الحقّة التي تعصف بالنقد العربي المعاصر، الذي عزف معظم باحثين ونقّاده عن العودة الرشيدة إلى الموروث العربي القديم بوصفه الانموذج الحضاري الإسلامي؛ والمرتكز على ثقافة تجد تمايزا عن ثقافات أعجمية دخيلة، تكمن في «عدم الثقة بالموروث النقدي العربي الأصيل –في الغالب– وعدم الثقة في هذا الإطار صرف جلّ النقاد العرب المحدثين عن الماضي الزاخر، إلى الحاضر الغربي الممركز وينطبق هذا الكلام على مساحة واسعة من الجهد النقدي العربي المعاصر»(سعد الله، 2007، صفحة 24).

وبهذا، فإنّ مبدأ (الشك) –أو لنقل الثقة المخلخلة– في التراث النقدي العربي القديم التي أفصح عنها القول السابق، والذي جعل شريحة من النقاد العرب منصهرة في بوتقة الآخر ليس بالشمولي بما كان؛ إذ نلفيما يتضاد مع ذلك، وهو ما ينقله لنا الناقد (سعد البازغي)، الذي شدّد على مبدأ تقوية النقد العربي المعاصر،وتعزيز موقفه في فضاءات الفكر النقدي الحداثي في مقابل تجاذبات المركز النقدي الغربي حيث إنّ

«القول بتحيّز مناهج النقد الغربي، هو قول بتحيّز المناهج النقدية كلّها، ونحن في حاجة ماسة إلى الموروث الفكري والنقدي العربي، لتعزيز الموقف النقدي العربي المعاصر»(سعد الله، 2007، صفحة 26).

ولا مناص أنّ مبدأ (الشك) في المعيار النقدي المعاصر يمثّل لبنة مركزية في التوجه التفكيكي، إذ نلفيمن يجعل منه فلسفة هدمية عدمية؛ وخذا ما أبرزه الناقد (سامي مهدي)؛ الذي ناقش مسألة التفكيك –أو التقويض باصطلاح آخرين– بقوله: «فلسفة التفكيك تجرّد الحقيقة من ضماناتها المرجعية، وتحيلها إلى متاهات من الاستعارات والتأويلات بدافع نسف (مركزية العقل)، وتهشيم (أصل الكلمة) ثمّ تجعل من تفتيت النصوص عملية مطردة، زارعة الشّك في كل نصّ، مجرّدة إيّاه من كل يقين، إذن هي فلسفة الشك المطلق، ومنهج الهدم المطلق، وتقويض مطلق للمعاني، وهذا يحيلنا إلى وصف العدمية الفكرية»(سعد الله، 2007، الصفحات 51-52).

وبذلك، فإنّ التوجه التفكيكي الحداثي –الذي نبّه إليه (سامي مهدي)– قد أحدث مزالق وانحرافات شوّهت جوهر التصوّرات النقدية على الساحة النقدية العربية –تحديدا–، ولكنّنا في مقابل ذلك نلفي الناقد (لؤي صافي) حريصا على التبشير بتلك الاستفادة التي يجنيها الفكر الإسلامي من النظرية الغربية الحداثية؛ والتي يوضّحا قوله: «ففي حين يمضي الفكر بعد الحداثي في تفكيك ما تبقّى من الثوابت التي قامت عليها الغربية الحديثة، يسعى الفكر الإصلاحي الإسلامي إلى تجاوز الزلّات والانحرافات في التجربة الحداثية، والبناء على مواطن القوّة فيها»(صافي، 2003، صفحة 8).

3. النقد الإسلامي المعاصر: منابعه التراثية ومشكلاته العصرانية

شكّل المنهج النقدي الإسلامي المعاصر حدثا نقديا في المعترك الفكري العربي الراهن؛ ذاك أنّه يشجب تلك الممارسات النقدية العبثية والتعسّفية، التي تقصي البنية القيمية المؤسسة لجماليات العمل الأدبي، وكذا تثبيته لتلك العلائقية التلازمية بين الشكل والمضمون، والتي نجد لها مؤشرات علامية بارزة في المدوّنات النقدية العربية القديمة؛ ولعلّ نظرية (النظم) لـ(عبد القاهر الجرجاني) أنصع دليل على ذلك.

وبذلك يحرص بعض النقاد في المجال الإسلامي على ضرورة تلمّس مواطن القوّة في التراث النقدي العربي، حيث نلفي(وليد إبراهيم قصّاب) –مثلا–مشدّدا على مشروعية تأسيس نظرية نقدية عربية معاصرة، انطلاقا من المخلّفات النقدية التراثية، التي حفظتها المتون النقدية العربية القديمة، فسجّلت –وفق ذلك– مؤشرات حقّة لتحقيق هذا الهدف العلمي؛ حيث استدلّ بتلك القراءات النقدية النظرية والإجرائية والتي ساهم في تفعيلها كوكبة من النقاد العرب المشهورين، من مثل: (عبد القاهر الجرجاني) و(حازم القرطاجني)، و (ابن رشيق)...وغيرهم؛ إذ تلمّس فيها مقوّمات النظرية النقدية والتي من أبرزها: النضج، والعمق، والتكامل المعرفي، حيث قال في هذا الصدد: «إنّ في هذا النقد (...) نظرات عميقة، وآراء سديدة في غاية النفاسة، وإن كثيرا منها ليتّفق مع أحدث ما توصّلت إليه الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة، ولكنَّ هذه النظرات متناثرة هنا وهناك، مبعثرة عند هذا الناقد أو ذاك وهي تحتاج إلى جمع وملمة، حتى يضمّ النظير إلى نظيره، والشبيه إلى شبيهه، ومن جمع المتفرّق، ولمّ شتات المبعثر المتناثر، تصنع نظرية نقدية عربية متكاملة، تقارب عناصر الأدب جميعها»(قصّاب، كيف نؤسس نظرية للنقد العربي؟، 2007).

ولعلّنا نلفي لهذه الرؤية دعما وتوافقا عند الناقد المغربي (خالد سليكي)، الذي راهن هو الآخر على حتمية الرجعة إلى الموروث النقدي القديم في ظلّ التّحول النقدي الذي تشهده الساحة النقدية العربية المعاصرة حيث يقول في هذا الشأن: «البحث في الخطاب النقدي والبلاغي التراثيين، يبقى من السبل التي تساعد على الخروج من المأزق الذي ظلّ يتخبط فيه النقد العربي؛ إذ نجد أغلب الكتابات النقدية قد أهملت التحليل وانساقت وراء البحث عن النظريات والتنظير، ممّا كان له انعكاس سلبي على الوضع المعرفي العربي»(سليكي، 2007، الصفحات 212-213).

وبالعودة إلى رؤية الناقد الإسلامي (وليد إبراهيم قصّاب)؛والتي شدّد فيها على الرجوع إلى نفائس التراث النقدي العربي –المهمّش– في ضوء تراكمات المعرفة الحداثية ورجّاتها العنيفة على الساحة النقدية العربية تلقيا واستلابا، فإننا نجد بعضهم محاولا إيجاد توأمة نقدية تنشئها تلك التضايفية البناءة بين النقدين العربي والغربي)، وبذلك يكون المنهج النقدي الإسلامي مطالبا بـ«المحافظة على الأصالة والحداثة، بمعنى امتلاك

الماضي، واحتضان الحاضر(...) فضلا عن دور هذا المنهج في المحافظة على بقاء مشروعية الإنسان في الإبداع، مقابل فلسفة المناهج النقدية الحديثة التي ترمي إلى تغييب الإنسان عبر هيمنة البنية عليه، منطلقة من عزل النص على ناصّه (...) ثمّ الإيمان بضرورة الانتماء إلى مقاربات الناقد وتقديسها، بوصفها نتاجا جديدا، أو بوصفها تأليفا ثانيا يضاف إلى التأليف الأوّل»(سعد الله، 2007، صفحة 32).

كما يطالعنا الناقد (عبد الله إبراهيم) بمسألة مهمة يلخّصها توجهه التفكيكي؛ حيث يشدّد على تفعيل مبدأ (الاختلاف) قصد تهيئة أرضية نقدية عربية تتّسم بالرصانة والاتّقاد المنهجي نتيجة ما أسماه بـ(الحوار المتكافئ) مع نظريات الآخر؛ حيث أكّد على «حاجة النقد العربي إلى حوار متكافئ، يحوّل ثقافة الآخر إلى مكوّن فاعل، وليس إلى مكوّن مهيمن، وإنّ معرفة الآخر لن تكون مفيدة إلاّ إذا تمّ التفكير فيها نقديا، واشتغل بها بعيدا عن سيطرة مفاهيم الدونية، فضلا على أنّ ممارسة نقد الذات أولا، ثمّ نقد الآخر ثانيا، توسّع من مجالات الاختلاف، وتوفّر إمكانية تتجاوز بها الثقافة العربية المعاصرة ضروب التماثل والتّبعية»(سعد الله، 2007، صفحة 47).

وإن كان (عبد الله إبراهيم) يدعوا إلى مبدأ الحوارية مع الآخر بشكل انفتاحي لم تحدّد ضوابطه أو شروطه فإنّ الأمر قد لا يستقيم عند (وليد إبراهيم قصّاب)، الذي لا يقدّم اعتراضا أو إقصاء جليّا لثقافة الآخر، بقدر ما كان مؤسّسا خطابه المضاد على أصول وأسس تدعم النقد العربي المتلقّي، وهذا ما عبّر عنه قوله: «ولكنّ ما ينبغي أن نفطن إليه، وألا يغيبَ عن تفكيرنا لحظة واحدة، أن أي منهج نقديّ عربيّ نتبناه في دراساتنا الحديثة يجب أن يكونَ أساسه الأكبر المكين قائماعلى تراثنا وثقافتنا وقيمنا العربية والإسلامية الأصيلة، وأن تكون الأسس الأخرى الجديدة، أو المقتبسة، أو المأخوذة من شرق أو غربمتناغمةً مع هذا الأساس الأكبر، داعمةً له، بل قائمة عليه»(قصّاب، كيف نؤسس نظرية للنقد العربي؟، 2007).

وبذلك تختزل القراءة النقدية المتمحّصة عند (وليد إبراهيم قصاب) إشكالية المنهج النقدي الغربي في تصادميته مع المشروع النهضوي الإسلامي بواكير إنشاء المنهج النقدي الإسلامي، الذي يكاشف النتاج الأدبي وفق أطره التي تنبثق من رحم التراثية طورا،واستفادته من إفرازات المناهج الغربية عبر آلياتها وأدواتها

العلمية الناجحة الهادفة، إذ بسط مقولته التي توضّح بشكل عميق الإجابات الإسلامية عن هذه المسألة الشائكة؛ والتي نصّها: «إنَّ موقف النقد الإسلامي من المناهج الغربيّة المعاصرة ليس واحدا، وإنما هو موقف يترجّح بين الاتّصال والانفصال، أو القبول والرّفض، فأمّا الاتّصال فيتجلّى في ضرورة انفتاح النقد الإسلامي على تقنيات المناهج الغربيّة وأدواتها في تحليل النصّ الأدبي تحليلا علميّا موضوعيّا يقوم على استنطاق لغته والتعمّق فيها من أجل الوصول إلى دلالتها الخفيَّة العميقة. وأمّا الانفصام فيظهر بجلاء في رفض النقد الإسلامي لفكرة" عزل النص "بجميع ألوانه، كما يظهر في التحفّظ بخصوص الخلفيّات المتمثّلة في العلمانيَّة والفلسفة الماديّة وسائر الايديولوجيّات التي لا تلقي للدين بالا، ولا تكترث بالأخلاق والقِيَم الإنسانيّة النبيلة»(الواسطي، 2011).

ولا غرو في أنّ الناقد يفصح بوضوح على ضرورة التماس مع معطيات النظرية الغربية، خاصة في أدواتها العلمية التي تستقرئ العمل الأدبي وفق أطر منهجية موضوعية تكاشف الدلالة المستترة داخل الدوال اللغوية قصد فضح مكنوناتها والخلوص إلى مدلولاتها الضمنية. كما يؤكد الناقد على المبدأ الانفصامي الذي يحرص عليه المنهج الإسلامي مع تلك المناهج؛ وخاصة تلك التي تبنّتالمقولة البارتية–التي تقضي بعزل النص على الخارج–؛ لأنّ المرتكز القيمي الأخلاقي سيظلّ محلّ الشاهد أو القاضي بقبول العمل الفني أو نفيه؛ حيث يضرب في سياق آخر مثالا بالمنهج البنيوي، الذي لا يخرج من دائرة الاتهام التي يقرّرها النقد الإسلامي في شأنه؛ إذ نلمحه قائلا في هذا الصدد:«وبخصوص المنهج البنيوي الذي يقول أصحابه بعدم عزل النص وضرورة رؤية الخارج في الداخل، فإنّ النقد الإسلامي يقف منه هو الآخر موقف الانفصام والتباين؛ لأنَّه يجعَل البنية" العليا "المتمثّلة في الفكر والفن والأدب والدين وليدة البنية" الدنيا "المتمثّلة في الوجود المادي، وينسى أو يتناسَى أنّ العلاقة بين الفكر والمادة علاقة جدليّة؛ بحيث يتبادلان التأثير والتأثّر، ويكمل كلّ منهما الآخر في عمليّة التطوّر التاريخي، والرّقي الحضاري»(قصّاب، النقد الإسلامي وموقفه من المناهج النقدية، 2011).

إنّ من أبرز المعوّقات والمآزق التي تواجه المشروع النقدي الإسلامي المعاصر داخل الساحة الأدبية والنقدية على مستوى الرؤية والمنهج، ما لخّصه الناقد (مُحَمَّد سالم سعد الله)، وهي(سعد الله، 2007، الصفحات 21-22):

1/ بروز نقاط الضعف المنهجي والفنّي في تقديم ممارسات النقد الإسلامي المعاصر على حساب الجانب الدعوي والإرشادي.

2/ عدم الاهتمام بالتغيّرات الحاصلة في البيئة النقدية العالمية على صعيد التحوّلات المنهجيّة والتغيّرات الأدبية، وذلك نظرا للتبعية المسيطرة على نتاجات النقاد العرب.

3/ انشغال نقاد الأدب الإسلامي المعاصر بالنصح والإرشاد في تقديم نتاجاتهم، أكثر من اهتمامهم بتقديم النتاجات الأدبية والنقدية بصورة جمالية فنّية.

4/ عدم استطاعة النقد الإسلامي المعاصر مجاراة النقود المنهجية العالمية على صعيد البنيوية وما بعدها نظرا للبون الشاسع بين النقدين؛ الإسلامي والغربي، ومن الجدير بالذكر أنّ النقد الإسلامي قد حقّق شوطا مهما في رسم حدوده وتحديد خصائصه، لكنّها خطوة ما زالت تحتاج إلى الكثير من الجهودات والنتاجات.

5/ عدم الاتّفاق على صيغة منهجية إسلامية واضحة في مقاربة النصوص الإبداعية.

وعلى الرغم من أهمية هذه المعوّقات التي تعيق السير الناجح للمشروع النقدي الإسلامي المعاصر، والتي تسلط الضياء في معظمها على خصيصة الدعويةالإرشادية التي تسمه –في نظر الناقد–، إلّا أنّها قد لا تكون بهذا الحجم عند بعض الباحثين، من مثل (عبد المجيد تركي)، الذي يبشّر بنجاح المشروع الإسلامي في المجال النقدي، نظرا لتوفّر منارات وكشوف الرؤية النقدية العميقة في خصائصه الذاتية؛ حيث يؤكد على

مسألتين جوهريتين تدعّمان سلطته في المجادلة النقدية المنهجية القائمة على الأسس العقلية المؤطرة علميا؛ والمتمثّلتين في:(تركي، 2003، صفحة 129):

- تطوير الحسّ النقدي والجدلي والتّأمل والتفكير.

- الإسلام رسالة كونية، والصفة الكونية تستبطن الانفتاح الفكري والتناسق العقلاني والتّكيف مع منطق تطوّر الأشياء، وخاصة في الانتقال من التعدّدية إلى التوحيد، ومن الفوضى إلى النّظام.

وعليه، فإنّ هذه العطاءات النقدية الكشفية المثبّتة في البحوث النقدية لرواد النقد الإسلامي المعاصر، تمثّل -بشكل أو بآخر- فاعلية القاعدة الإسلامية في التأسيس الحقيقي للمنهج أو النظرية النقدية الجديدة إذا ما تواصلت البحوث الجادة في هذا المضمار المعرفي؛ إذ إنّ الإسلام كما يراه الباحث (عدنان علي النحوي): «غنيّ بثروته، إنّه نبع غنيّ ثرّ، يغني البشرية كلّها إذا حملته المواهب المؤمنة في الأرض لتدفع الناس إلى أصدق النظريات والمناهج»(النحوي، 1993، صفحة 1998).

وعليه، فإنّ النقد الإسلامي المعاصر يخلق انبعاثا إسلاميا بلبوس حداثي معاصر قصد التبشير بفضاءاته المنهجية، التي تجعل منه منهجا نقديا بديلا عن تلك المقولات النقدية المتناثرة في السجلّات النقدية العربية الزاخرة؛ إذ يغترف من معين الأصول العقيدة الإسلامية الرصينة الخالدة، دون إغفال منه إلى ذلك التجاوب والتضايف مع منجزات النظريات الحداثية التي تعين على تلمس مواطن الجمال الحقيقي بعيدا عن شبهات الانحراف العبثي الهدّام.

4. خاتمة:

في ختام هذه التقصّي النقدي عن معالم مشروع النقد الأدبي الإسلامي، وطموحاته إلى إنشاء منهج نقدي إسلامي معاصر في ظلّ تجاذبات التراث والحداثة؛ فإنّنا نخلص إلى نتائج نعرضها وفق الآتي:

– خطى المنهج النقدي الإسلامي خطوات مهمة انطلاقا من تلك الأعمال النقدية التي يروّج لها رواده وأتباعه، في الوقت الذي تشهد في الساحة النقدية العربية المعاصرة أزمة المنهج، أهي إلى الآخر أقرب، أم لتراثها تؤوب وترجع.

– المشروع النقدي الإسلامي المعاصر يحمل ما يشبه المشروعية في تكريس مبادئه وتفعيل مرجعياته التي تتكئ عليها قراءاته النقدية ومقارباته للنتاج الأدبي في شتى أجناسه وتحوّلاته قصد تشكيل المنهج النقدي الإسلامي المعاصر؛ إذ إنّ بوادر نهضته النقدية –في ظلّ وجود أقلام نقدية منافحة عنه، وتروّج له من أمثال: عماد الدين خليل، وليد إبراهيم القصّاب، نجيب الكيلاني ...وغيرها–، لدليل صارخ على وجود إرهاصات لقيام المنهج النقدي الإسلامي المعاصر، الذي يدافع عن هويته من جهة، ويأخذ بالمعطيات الإيجابية التي أفرزتها نظريات الآخر ، وهو بذلك بحاجة إلى باحثين مخلصين يدافعون على هذا النهج عبر العمل النقدي الجماعي بعيدا عن النزعة الفردية والأنانية البحثية، والانصهار في نظريات الآخر الغربي ومناهجه الملغّمة.

– يرفض المنهج النقدي الإسلامي النظرة التجزيئية أو الأحادية –باصطلاح (عماد الدين خليل)– في المقاربات النقدية للأدب الذي يسمه جانبان أساسان؛ جمالي ومضموني؛ حيث نادى بالقراءة الكلّية الشمولية.

– تفضيل الثقافة النقدية العربية الماضوية في المتصوّر النقدي الإسلامي المعاصر، من منطلق استهجان مناهج الفكر التغريبي القائمة على فلسفات إلحادية أو معتقدات فاسدة منحلّة، قد لا يكون حلّا نهائيا أنجع، منطلقين في ذلك من أنّ الحداثة بها عناصر مستنيرة قد تكون لبنات لبناء منهج نقدي عربي جديد، ومردّ ذلك أنّ الحداثة البناءة في زمننا الراهن أضحت جزءا من واقع مجتمعاتنا الإسلامية.

5. قائمة المراجع:

بطاهر، بن عيسى. (1998). الأدب الإسلامي ونقده عند الشيخ أبي الحسن الندوي. *مجلة إسلامية المعرفة*(12).

تركي، عبد المجيد. (2003). هل الإسلام يتمرد على حرية النقد؟ *مجلة رؤى*(18-19).

خليل، عماد الدين. (2007). *مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي* (المجلد 1). سوريا : دار ابن كثير.

رحماني، أحمد. (1994/1995). النقد الإسلامي المعاصر بين النظرية والتطبيق . *أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة قسنطينة. الجزائر.*

سعد الله، مُحَمَّد سالم . (2007). *أطياف النص: دراسات في النقد الإسلامي المعاصر* (المجلد 1). الأردن: عالم الكتب الحديث.

سليكي، خالد. (2007). *الخطاب النقدي بين إدماج التراث وأفق التأويل* (المجلد 1). المغرب: منشورات سليكي إخوان.

صافي، لؤي. (2003). أزمة الحداثة. *مجلة رؤى*(19-18).

قصّاب، وليد إبراهيم. (20 3, 2007). *كيف نؤسس نظرية للنقد العربي؟* تاريخ الاسترداد 10 12, 2021، من www.alukah.net/web/alkassab.

قصّاب، وليد إبراهيم. (2008). *من قضايا الأدب الإسلامي* (المجلد 1). سوريا: دار الفكر.

قصّاب، وليد إبراهيم. (9 8, 2011). *النقد الإسلامي وموقفه من المناهج النقدية*. تاريخ الاسترداد 18 12, 2021، من www.alukah.net.

النحوي، عدنان علي. (1993). *تقويض نظرية الحداثة* (المجلد 2). دار النحوي: السعودية.

الواسطي، مُحَمَّد. (26 7, 2011). *النقد الإسلامي والمناهج النقدية الغربية المعاصرة..أية علاقة؟* تاريخ الاسترداد 18 12, 2021، من http://www.alukah.net .